دفاع عن الشعر الجاهلي

للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي

— ١ —

كثرت في العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد في الزراية بالشعر الجاهلي، وتنقصه، ورميه بالقدم والجمود، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه؛ وعيبه حينا بخلوه من الشعر التمثيلي والقصصي، وحينا بتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة في آثاره الفنية الباقية، وباضطراب معانيه وعدم تمثيله إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها، وحينا آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربي أو الأدب الجاهلي وحده محدوداً ضئيلا؛ وآخرون قرأوا الأدب الجاهلي فلم يطربوا له، ولم يرتاحوا إليه، ولم يفهموه حق الفهم؛ وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعوبية الحديثة التي ترى مظهرها باديا في تنقص كل ما هو عربي أو قديم والتعصب لكل ما هو غربي أو حديث

ولا شك أن في أكثر آرائهم جورا في الحكومة الأدبية وإسرافا ومغالاة كثيرين. «فلكل شعر جيد — كما يقول الدكتور طه حسين بك في الأدب الجاهلي — ناحيتان مختلفتان، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفني المطلق، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه؛ وهو من ناحية أخرى مرآة تمثل في قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه؛ فازدراء الشعر الجاهلي لغو ليس أقل إمعانا في الخطل من ازدراء الشعر الأجنبي»

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلي وتذوقه صعوبات كثيرة، أهمها صعوبة لغته وأسلوبه وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد. ولكن ذلك لا يمكن أو لا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفني الرائع الذي نجده في الشعر الجاهلي. فضلا عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها. ومع ذلك كله فإن الشعر الجاهلي أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية؛ لا يمكن لذلك ولغيره أيضا الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه وراءنا ظهريا

في الشعر الجاهلي جمال، وهو أيضا لا يخلو من هنات؛ وفيه روعة، وإن كنا لا نبرئه من العيب، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفني الذي يمثله الشعر الجاهلي، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أي حد يصح أن نجاوز هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلي القديم، وإلى

يمشي الهوينا إذا ما رام فرقتنا ... كأنه بطة تنجر في شبكه
لا يستقر فأما حين يطلبنا ... فلا سليك يدانيه ولا سلكه
كأنه طالب ثأراً على فرس ... أجد في إثر مطلوب على رمكه
يا صدق من قال أيام مباركة ... إن كان يكنى عن اسم الطول بالبركة

وسليك وسلكة من عدائي العرب المشهورين والرمكة الفرس فالحارثي هذا يشكو ثقل رمضان وبطء سيره لأنه يكرهه وأعاب آخر على الناس ما يبدون من الرغبة وانقضاء رمضان وتصرمه وفي مروره بعجل التعجل بانتقاص أيام عمرهم

مضى رمضان محموداً ووافى ... علينا الفطر يقدمه السرور
وفي مر الشهور لنا فناء ... ونحن نحب لن تفنى الشهور

وقد قال في نفس المعنى الشاعر الآخر

يسر المرء ما ذهب الليالي ... وكان ذهابهن له ذهاب

وعسانا أطلنا الحديث وشغلنا قراء (الرسالة) الغراء بالتحدث عن رمضان الذي شغل الأدباء والشعراء طوال العصور الإسلامية ولقد بقيت في نفوسنا بقية من الحديث عن رمضان ترجلا الى العام المقبل قالى الملتقى

بغداد ضياء الرفيلي
الطالب المنتدب في المستشفى التعليمي سابقا

أي مدى يصح أي نصير في الدفاع عنه ؛ فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية في البحث والمناقشة

أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلي البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الأغراق في الاداء . وهذا شيء يسلمه النقاد للشعر الجاهلي تسليما ، ويجزمون به ؛ وهو ما يدفعنا إلى الاعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون في ذلك ما يدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الاعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة في الشعر الجاهلي هي نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد في الأدب العربي الحديث ؛ « بعد أن أبعدوا المحدثون الشعر عن البساطة والأخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسنا له » كما يقول الدكتور ضيف (١)

ويمتاز الشعر الجاهلي أيضا بالزهد في المحسنات وألوان التزيين المعنى ؛ وهذه سمة غالبة عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته متثقلا بقيود الزخرف البديعي الموروث عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي ، إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى يرى الشعر الحديث من عاهته ، وسار طليقا إلى غاياته . وقد ظهرت في الأدب الأوربية أيضا صبغة الزخرف الفني في العصور الوسطى ، كما حدث في الأدب الفرنسي في أعقاب عهد لويس الرابع عشر ، وفي الأدب الانجليزي بعد عصر اليصابات . أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلي يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ، ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟

ومن خصائص الشعر الجاهلي متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأسره ؛ وللبيئة البدوية أثر بعيد في ذلك ، وقد سار المحدثون في العصر العباسي على هذا النهج حينا ، وحينا آخر أغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة الغزليين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة كما دافع آخرون عن العذوبة والرقة ، ووقف آخرون يحددون مواقف هذه ومواقف تلك كابن الأثير في المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا في الشاعر وميلا منه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصري المشهور ، ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبي ، وارهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية . ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلاسته يجب أن تبرز في انتاج الشاعر وفنه ، لأثر الحياة والحضارة في نفسه ؛ ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلبا ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة في مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغرابا وتعقيدا عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكلفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة في قصائدهم إنما يفعلون ذلك تقليدا فحسب وفي مطلع حياتهم الفنية التي يكثر فيها الناشئون من التقليد ؛ ولو كانت قصيدة — نهج البردة لشوقي مثلا — قد صيغت في أسلوب عذب رقيق سهل عن أسلوبها التي صيغت فيه ، لكان أثرها الأدبي أعظم في نفس الأمة وذوقها ومشاعرها الأدبية . ونحن على أي حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلي لجزالته ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة في الشعر الجاهلي .

ومن خصائص الشعر الجاهلي أيضا القصد إلى المعنى في إيجاز ويسر وقلة إطناب . ولا شك أن العصور الأدبية التي تلت العصر الجاهلي وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشاعر عن هذا الاتجاه ، ودفعته إلى الأطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقاد حيال ذلك طرائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالأطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للاطناب مواضع وللايجاز مواضع كقدامة في نقد النثر وابن سنان في سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر : آثر الايجاز أو اعمد إلى الأطناب ؛ وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدي

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب